قراءة في كتاب: الحليّ في عقود النكاح السوسية، دراسة معجمية إحصائية

للأستاذة خديجة بَـجِـي

للمعاجم والدراسات المعجمية أهمية لا تنكر، فهي توفر للمهتمين قاعدة معطيات غزيرة ومتنوعة، وتُكسب قارئها ثقافةً موسوعيةً معتبَرَةً. ولقد اتجهت الجهود في السنوات الأخيرة، في الحقل الأكاديمي، إلى إنجاز دراسات وأبحاث غايتها تحقيق تراكم في هذا المجال، ومن ثمرات تلك الجهود هذا العمل موضوع القراءة.

يتألف هذا الكتاب[1] من 355 صفحة من القطع الكبير، تتوزعها مقدمة، وخمسة فصول تندرج ضمنها ستة عشر مبحثاً، وخاتمة، وملحقيْن للألفاظ والوثائق، ثم كشفاً بالمصادر والمراجع المعتمدة.

استهلت المؤلفة عملها بالحديث عن موضوعه الذي تروم منه "الإسهام في تحقيق نوع من التراكم العلمي في موضوع لم يحصل فيه تراكم كافٍ (...) والإسهام في إخراج الرصيد الثقافي المخطوط بمنطقة سوس"[2]، وكذا السعي إلى "إنجاز معجم خاص بالحليّ، مستهدفةً رصد كل الألفاظ المتعلقة بالحليّ في وثائق المتن المعتمد، والعمل على التعريف بها"[3]. كما عرجت على تحديد مجال الدراسة، وهو منطقة سوس التي تقع في الجنوب الغربي للمغرب، وتمتد ما بين السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الغربي وحوض وادي درعة الأسفل والأوسط، وما بين المحيط الأطلنتي غرباً، ومنطقة تاليوين وسگتانة شرقاً. وتشمل ولاية أگادير إداوتنان، وإنزگان أيت ملول، وأقاليم تارودانت، واشتوكة أيت باها، وتيزنيت[4].

وعرضت المؤلفة في نهاية المقدمة قراءةً نقديةً في الدراسات السابقة حول الموضوع، كما أشارت إلى المنهج المعتمد في البحث، وقدمت خطته التفصيلية والصعوبات التي اعترضتها.

---

[1] الكتاب في الأصل أطروحة نالت بها المؤلفة شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر بأگادير، تحت إشراف الأستاذ أحمد الهاشمي، ونوقشت بتاريخ: 2015/11/11. وصدر الكتاب ضمن منشورات الجامعة، بتقديم للأستاذ حسن الطالب، ط1، 2020، طباعة ونشر سوس، أگادير.

[2] مقدمة الكتاب، ص: 6.

[3] مقدمة الكتاب، ص: 7.

[4] مقدمة الكتاب، ص: 5.

استثمرت الدراسة عدداً كبيراً من الوثائق المتمثلة في عقود النكاح والجهاز بمنطقة سوس، بلغت في مجموعها 377 وثيقة، امتدت على فترة تقارب ثلاثة قرون ونصف، فأقدمها يعود لسنة 1077هـ/ 1666م[5]، فيما أُرّخ أحدثها بسنة 1419هـ/ 1998م[6].

تحدثت المؤلفة في الفصل الأول (ص ص: 27-88)، بمباحثه الثلاثة، عن الحليّ بسوس، وبعض خصائص المعجماتية الأمازيغية. وهكذا تناولت الدلالة اللغوية للحُلِيِّ (مفردها: حَلْيٌ)، وهي "كل ما تتزين به المرأة من مصوغات من المعدن أو الحجارة الفاخرة، أو الجواهر والخواتم والأقراط وغيرها"[7]. وانتقلت للحديث عن تاريخ الحليّ بالمغرب عموماً، وبسوس على وجه الخصوص، فأوردت جملة من أقوال المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامى والمحدثين، من اليوناني سترابون (Strabon) إلى اليعقوبي والبكري (خلال العصر الوسيط)، وصولاً إلى المعاصرين أمثال هنري طيراس (Henri Terrasse)، وجاك وماري روز رباطي (Jacques et Marie-Rose Rabaté)، وأوديت دي بويگودو (Odette Puigaudeau) وغيرهم، وكلهم أكدوا على قدم صياغة الحليّ وتجذرها بالمنطقة، وأن الحليّ شاهدة على توارد ثقافات متعددة عليها بصَمتْها بلمساتها الإبداعية المتفردة.

ولقد ساعد وجود مناجم متعددة بمنطقة سوس على ازدهار الصياغة بها على مرّ العصور، مثل مناجم النحاس (تازالاغْت، وأگجْگال، وتاتاوْت، وإسِينْ...)، ومناجم الفضة (تامدولت، وأكوتام، وزگونْدر...)، ومناجم الذهب لكن بدرجة أقل. ومنحت هذه العوامل الحليَّ السوسية ميزات متعددة، منها الابتكار والإبداع في الزخرفة والتزيين، مما يضفي عليها جاذبية لا تقاوَم. واشتهرت بالصياغة مدن تيزنيت، وتارودانت وضواحيهما.

وفي موضوع المعجماتية الأمازيغية (Lexicographie)، توقفت المؤلفة مليّاً عند مفهوميْ "المعجم" (Lexique)، و"المعجمية" (Lexicologie)[8]، وقدمت نماذج من المعاجم الأمازيغية وتعريفات بها، يعود أقدمها للعصر الوسيط (**قاموس ابن تونارت**)، مروراً بالقرن 18م (**المجموع اللاّئق على مشكل الوثائق** للنفيسي)، وصولاً إلى معجم جوستينار (Justinard) عن تاريفيت، ومعجم ميلود الطايفي عن تمازيغت، و**المعجم العربي الأمازيغي** لمحمد شفيق، وانتهاءً **بمعجم الأفعال: تشلحيت–فرنسية** لعبد الله المنتصر[9].

---

[5] يتعلق الأمر بعقد من منطقة أگلو بتيزنيت (صورة منه في نهاية هذه القراءة).

[6] وهو عقد من منطقة من منطقة بيوگرى باشتوكة أيت باها (صورة منه في نهاية هذه القراءة).

[7] راجع، ص: 32 من الكتاب.

[8] في الكتاب شرح موسع لهذه المفاهيم، ص ص: 65-67.

[9] انظر تفاصيل عنها في الكتاب، ص ص: 67-75.

وعند الحديث عن **لغة المتن**، تناولتْ لغة الكتابة والمتن المعجمي المعتمد، وكذا الخصائص الصوتية، والخصائص الصرفية، والضمائم الإضافية والحرفية، ثم الضمائم الوصفية. ففيما يتصل بلغة الكتابة والمتن المعجمي، خلصت إلى أن اللغة عربيةٌ لكن بخلفية اللغة الأمازيغية، أما المصطلحات المعتمدة في الوثائق فتكون بالأمازيغية أو بالعربية، أو بصيغة معبّرة عن التفاعل بين اللغتين. وقدمت أمثلة عديدة عن كل حالة.

وفي باب **الخصائص الصوتية** تحدثت المؤلفة عن الظواهر الصوتية الملاحظة في المتن المدروس، ومن ذلك ما يكتنف الصوامت والصوائت من تغييرات، مثل التعاقب بين التفخيم والترقيق، ورسم الزاي المفخمة (ژ)، والكاف المعقودة (گ)، وإثبات الصوامت دون إثبات الحركات أو ما ينوب عنها (الألف والواو والياء)، وتعامل الأصوات وما ينتج عنها من ظواهر مثل: المخالفة (Dissimilation)، والقلب المكاني. أما **الخصائص الصرفية** فقد استنبطتها من أسماء الحليّ الأمازيغية، فلاحظتْ أن الاسم البسيط منها يأتي حسب الجنس والعدد، إما مفرداً أو جمعاً، مذكراً أو مؤنثاً. وقدمت أمثلة توضيحية لذلك.

وتجلت **الضمائم الإضافية والحرفية** في الأشكال التركيبية المتولدة من ضمّ المصطلح إلى غيره، أو ضمّ غيره إليه، وتتمثل وظيفتها في إضافة معاني جديدة إلى الرصيد المفهومي للمصطلح. وفي المتن المدروس نماذج كثيرة لأسماء مركبة تركيباً إضافياً مع ضمائم أضافت معاني جديدة لهذه الأسماء[10].

أما في **الضمائم الوصفية**، فاعتمدت التراكيب الوصفية في بناء عدد من أسماء الحليّ المدروسة، وفي تخصيصها وتمييزها بذكر اسم الحلية مفرداً أو مضافاً، متلواً بصفة تشكل ضميمة تبين لونها أو حجمها أو مادة صنعها أو كيفيتها. ومن أمثلة ذلك: (دملج فضي/ أساور مشلّلة/ دملج ذهب مشبك/ دملج فضة مفتوح...)[11].

وفي الفصل الثاني (ص ص: 89-145) توقفت المؤلفة عند مكونات الحليّ من الأحجار الكريمة بأصنافها (الجوهر، والرّعاف، والكركوب، واللُّبان بأنواعه، والمرجان)، ومن الخرز (إحْبوبْن، وأقّايْن، والعقيق)، ومن المصوغات الفضية (أُدّيز، وتاگموت، وتيموحدين، والحرز، والمصحف)، والعملة (الدرهم، ولارْبيع: ربع الريال الحسني، والأنصاص: نصف الريال الحسني، والريال الحسني، والريال النيكلي، ولْگروش)، والنبات (القرنفل أو النُّوار)، والأصداف البحرية (أمْجون). وأفردت كل مكون منها بتفصيلات شملت معناها اللغوي، ومصادرها، وخصائصها، واستعمالاتها...

[10] تُنظر تفاصيل هذه المسألة في الكتاب، ص: 87.

[11] للمزيد عنها، راجع ص: 88 من الكتاب.

والفصل الثالث (ص ص. 147-189) موضوعه: حليّ الرأس، التي تتفرع إلى نوعين، حليّ الجبين، وحليّ الأذن. أما حليّ الجبين فهي التي تستعمل لتثبيت أغطية الرأس وتزيين الجبين، وهي أشكال مختلفة (إسْرسْل، وإسْني، وإزْروزْن، وتازْرا، وتاسْفيفت، وتامْعَرّشت، وسلسلة الرأس، والمشبوح، والناصية). وأما حليّ الأذن فمتنوعة كذلك، ومنها (إطْرناش، وأوگْليمن، والبُكَرِيات، والحلقة، والخُرص، وتخرصين، ولخراص، والدوّاح، وتِيويناس، والطوانگ، ولخرّوب).

أما الفصل الرابع (ص ص: 191-250) فقد خصص لحليّ الجذع بصنفيْها: الخِلالة والقلادة. وتعدّ الخِلالة من الحليّ المشهورة في المغرب، وتتميز عن نظيراتها ببلدان شمال إفريقيا، كما أنها تختلف من قبيلة لقبيلة ومن قرية لأخرى. ومنها أصناف متعددة: (تيزْزْاي، وتيزرزاي سنْدالي، وتيزرزاي ن تاوكّا، وتيزرزاي طُبِّجين، وتازْرْزِيت ن تاعرابين: الخِلالة الصحراوية، والخِلالة الصويرية، وتازرزيت ن نقورت: خِلالة الفضة، والخِلالة المشلّلة بالفضة، والخِلالة المخزنية، والخِلالة المركبة). وما يرتبط بها من لوازم: خيط الخِلالة، وسلسلة الخِلالة، وقلادة الخِلالة، ونظم الخِلالة.

إلى جانب الخِلالة، عرجت المؤلفة على القلادة، وأوردت أسماءها التي منها (تازْرا، وتاسْدِييت، وتيفولوت، وأزْرار، وتيسْمسْمت، وتاسْغالت)، لكنها تعرف في سوس باسم: تيفيلوت، وتتميز بغنى وتنوع مكوناتها من فضة وأحجار كريمة وقطع نقدية قديمة وعقيق وخرز وأصداف وقرنفل...، ويمكن التمييز في القلائد بين الفضية (أحْلاّب، وتارْدّاحت، وتادْراست، وتازْلاگت) والمكونة من الأحجار الكريمة مثل اللُّبان، والمرجان والعقيق الحرّ والخرز. وقد فصّلت في كل نوع وفي مكوناته ومصادره واستعمالاته.

وخامس فصول هذا الكتاب وآخرها (ص ص: 251-295) تم تخصيصه لحليّ الأطراف، وهي الخواتم، والخلاخل، والأساور. فالخواتم بسوس يغلب على صناعتها معدن الفضة، ومن أسمائها (خاتم بلْگرش، وإدْ مّوتْبيشال، وتلْمريت، وبوتقورّيت: بوقبيبة، وتلْختمت، وبوتبّونيزْت). أما الخلاخل فمن الحليّ التي تزين بها المرأة رجليها، عند ملتقى الساق والقدم، وتُتخذ من الذهب أو الفضة، وتُلبس أزواجاً في كل رِجل خلخال. وتغلب الفضة على صناعتها في سوس، ويكون الخلخال دائري الشكل مفتوح الطرفين. فيما الأساور التي تزين بها المعاصم تتخذ لها أسماء مختلفة باختلاف المناطق، ومن الأسماء الواردة في الوثائق التي استندت إليها الدراسة: (أبْزّگ/ أزْبْگ لْمفرْغ، وأزبگ إدْ بوتْگّورا، وأزبگ بِيبوضن، وأزبگ بويْمي، وأزبگ نْتيحبوبين، وأزبگ ن وورغ، وأزبگ ن نقّورت، أزبگ ن واناس، وأدْبليج/ الدملج الرقيق، والدملج المسموط، والدملج المشبك، وسوار أمضوْر، وسوار

الخرز، وسوار القصدير، وسوار النحاس، وسوار الذهب، وسوار مشلل، والسرتلة، وأمْحْصْر، والنّْبالة، والنبالة المركبة، والنّْبيْلة، وتانْبالت ن نقّورت...).

وقد حرصت المؤلفة في حديثها عن الحليّ المختلفة واستعمالاتها المتنوعة، على ربط كل واحد منها بالوثيقة/ الوثائق التي ورد بها، وعدد مرّات وروده، معززة ذلك بالصور التي راكمت منها عدداً مهماً، فمنها الخاصة ومنها التي التقطت في محلات الصياغة، أو لدى الأسر والعائلات التي تملك أنواعاً متنوعة من تلك الحليّ بمختلف مناطق سوس.

أما الخاتمة فقد تمّ فيها جردٌ لأهم نتائج الدراسة، ومنها:

- تميّز الحليّ المغربية التقليدية بالغنى والتنوع، وكونها تشكل جانباً هاماً من الثقافة المغربية؛
- تمكّن الصائغ المغربي بمنطقة سوس من الحفاظ على أصالة الحليّ التقليدية وتجديد إبداعاته بالرغم من المؤثرات الأجنبية المطّردة؛
- استفادة صياغة الحليّ بسوس من وجود مناجم كثيرة وفرت المادة الخام، كما شكلت مصدر عيش للعاملين بالمناجم، والمتاجرين في المعادن، والمشتغلين بصياغة الحلي وسك النقود؛
- انتشار عدة مراكز لصياغة الحليّ والتجارة فيها بمنطقة سوس، مثل: تيزنيت، وتافراوت، وماسة، وإنزگان، وتارودانت، وأولوز...، وكذا في بعض القرى، أفرز نماذج متفاوتة من حيث الصياغة والزخرفة والأشكال...؛
- حاجة المعجماتية الأمازيغية لدراسات وأبحاث ومعاجم في مجالات التعليم والإدارة والاقتصاد والعادات والتقاليد والفنون وغيرها؛
- لغة المتن المدروس هي العربية في عمومها، لكنها تستضمر، في غالب الأحيان، الأمازيغية، لذا ترد أسماء الحليّ أحياناً بالعربية، وأحياناً أخرى بالأمازيغية، وتارة بالعربية المُمزَّغة أو الأمازيغية المُعرَّبة. إلاّ أن الجداول الإحصائية المبثوثة في ثنايا الدراسة تُبيّن هيمنة الألفاظ الأمازيغية (تاشلحيت)، تليها التي بالعربية، ثم المُمَزَّغة، مما أفرز معجماً غنياً يفيد المشتغلين بالصناعة المعجمية؛
- يلاحظ من لغة المتن أن كتابة بعض الصوامت لحقتها تغييرات، من قبيل التعاقب بين الترقيق والتفخيم، وإثبات الصوامت دون إثبات الحركات أو ما ينوب عنها (الألف والواو والياء)، وورود أسماء مركبة تركيباً إضافياً مع ضمائم أضافت معاني جديدة لتلك الأسماء؛

- يتميز معجم الحليّ بمنطقة سوس بالتنوع والغنى، وبعض الأسماء مشتركة بين مناطق مختلفة، مع بعض الخصوصيات المحلية؛
- يكتسي موضوع الحليّ أبعاداً متعددة، فهو يؤشر أحياناً على الأبعاد النفسية، وعلى الانتماء الديني والقبلي والاجتماعي والطبقي، ويمكّن من معرفة التأثيرات الثقافية بين المجتمعات. كما تشكل رموزه المتباينة أرضية خصبة لدراسات نفسية وسوسيولوجية وأنتربولوجية وغيرها.

عزّزت المؤلفة عملها بخريطة للمجال المدروس، وبكمّ كبير من الصور لمختلف الحليّ المتناولة، بلغت في مجموعها: 326 صورة ملونة، وتخللت الكتاب كثير من الجداول، وصل عددها: 137 جدولاً، خصّص جلّها للحليّ الواردة في العقود، مع تبيان الناحية التي نُسبت إليها، والإشارة لأقدم ورود لها في العقود. فيما أفرِدت بعض تلك الجداول لأسماء الحليّ بالأمازيغية ومقابلها بالعربية، أو لتلك التي تعرّبت أو التي تمزّغت. فضلاً عن ملحقيْن اثنين، واحد لألفاظ الحليّ الواردة في الكتاب، وعددها: 263، وآخر ضمّ صوراً لنماذج من الوثائق المعتمدة، وعددها عشرون وثيقة.

وتمّ ختم الكتاب بقائمة من المصادر والمراجع، بلغت في مجموعها: 91، منها 71 عنواناً باللغة العربية، و20 عنواناً باللغة الفرنسية. فضلاً عن استثمار المؤلفة مادةً شعريةً مهمةً، سواءٌ ما كان منها بالعربية وذلك بالعودة إلى مختلف دواوين الشعر العربي التي فيها أوصاف للحليّ. أو بالأمازيغية، حيث اقتبست شواهد عديدة من الأشعار التي وظّفت الحليّ وتغنّت بها، خاصة ما كان للرايسة فاطمة تاباعمرانت، والرايس الحاج محمد الدمسيري، والرايس الحسن أرسموك. وما نظَمته الشاعرة النزهة أباكريم، والشعراء سيدي حمّو الطَّالب، وسعيد إد بناصر، والحسن حميتي، وأحمد حمداني. فضلاً عن توظيفها لأغاني النساء بسوس، خاصة اللون المعروف ب"تانْگّيفْت"، وهي أشعار ترددها النساء عند زفّهن للعروس. وهذا غير ما جمعتْه من مادة شفهية بعموم سوس، من عديد الأُسر، والصاغة وأمناء الحرفيين، وتجار الحليّ، ومسؤولي مجمّات الصناعة التقليدية والمتاحف...

ولا يسع قارئ هذا العمل إلا الثناء عليه، مثلما يثني على كل الأعمال المعجمية التي تحتفظ بثروة لغوية مهمة يتهددها الاندثار في ظل "الفوضى اللغوية" العارمة. ولقد ساهم هذا الكتاب بشكل ملحوظ في إغناء حقل الدراسات المعجمية بتوفيره مادة لغوية ستفيد، بلا شك، المشتغلين بالقضايا اللغوية عموماً وبالصناعة المعجمية بوجه خاص. وهو يعدّ بحق

"أول أطروحة مغربية معجمية جامعة للألفاظ والأسماء، بل والمصطلحات التقنية الخاصة بالحلي في عقود النكاح السوسية"[12].

وبإمكان مؤلفة هذا الكتاب، الأستاذة خديجة بَجِي، أن تبلغ بعملها شأواً أبعد مما وصله الآن، لو أنها خصصت بعض الوقت للتفصيل في جملةٍ من القضايا، والتدقيق في أخرى، ومن ذلك:

- إعداد فرش عن تاريخ منطقة سوس التي اختارت الاشتغال على عقود أهلها؛
- توسيع البحث في جغرافية المجال المدروس، وتدقيق حدوده؛
- إجراء مسح شامل لكل القواميس والمعاجم التي اشتغلت على اللغة الأمازيغية (خاصة تاشلحيت)، لأنها تختزن مادةً وثيقة الصلة بالموضوع، ومنها– على سبيل المثال– قواميس:
- **السّرى للسعادة بالحسنى وزيادة** (قاموس أمازيغي عربي)، لإبراهيم بن علي الإسافني الأقاوي (ق 18م). وقد صدر المعجم محققاً بعنوان: **القاموس الأمازيغي العربي**، ضمن منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، سنة 2014، بعناية ذ. عبد الله خليل؛
- الهلالي، عبد الله بن الحاج شعيب (ق11هـ/17م) : **العجمية على كشف أسرار العربية**، المعروف ب"**معجم الهلالي**". وهو مخطوط، توجد منه نسخة بخزانة الإمام علي بتارودانت؛
- Destaing, Edmond, *Lexique français-Tachelhit*, Paris, 1938.
- Jordan, Antoine, *Dictionnaire berbère-français: (dialectes tašelhait)*, Rabat, Omnia, 1934.
- Esteba Ibañez E., *Diccionario* Español *baamrani (dialecto bereber de Ifni)*, Instituto de estudios africanos, Madrid, 1954.
- Bounfour, Abdallah et Boumalk, Abdallah, *Vocabulaire usuel du tachelhit*, Edition Centre Taik Ibn Ziyad, Rabat, 2001.

الوافي نوحي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

[12]– من تقديم ذ. حسن الطالب للكتاب.

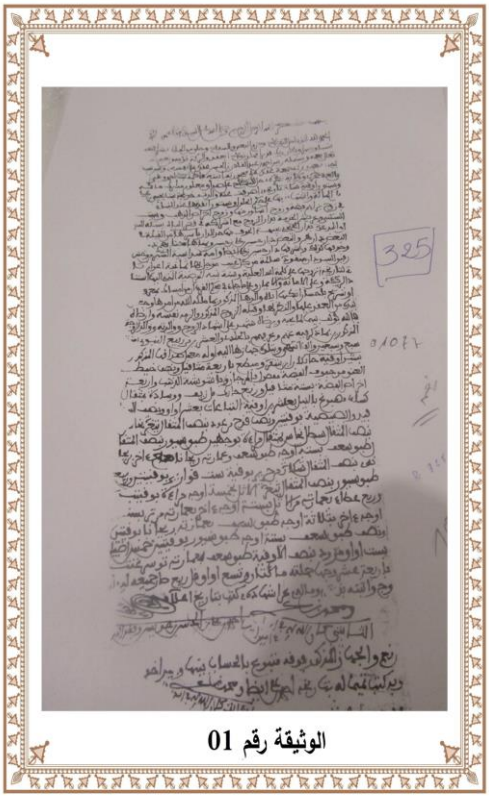

الوثيقة رقم 01

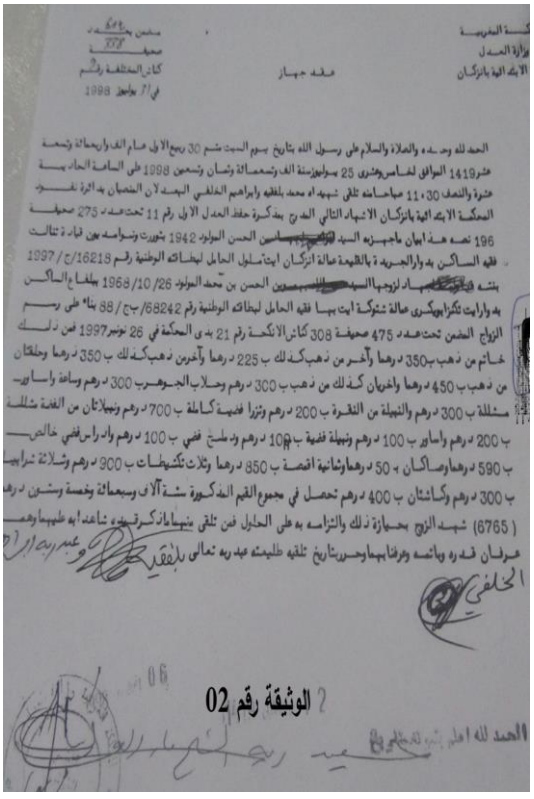

الوثيقة رقم 02

أقدم وثيقة مستعملة في الدراسة، مؤرخة بسنة (1077هـ-1666م)

من منطقة أگلو- تيزنيت

أحدث وثيقة مستعملة في الدراسة، مؤرخة بسنة (1419هـ-1998م)

من منطقة بيوگرى- اشتوكة أيت باها